# الغائب والغائب الروائي

## البعد الجمالي في رواية "جارات أبي موسى" لأحمد التوفيق

جلول قاسمي

تحتفي "جارات أبي موسى" للروائي أحمد التوفيق بعدد من السجلات الثقافية، تشهد على ثراء منجزها السردي وغناه،كما تجعل البعد الجمالي رهانا مركزيا حاضرا بقوة. وتُقدم الرواية إشاراتها الجمالية، الحاملة للقيم النصية والدلالية، من خلال التعبير المتين والجملة المختصرة، التي تسوق المعنى في أيسر سبيل، فتتلبس روح العصر الذي تستدعيه، لتكون وعاء أمينا، الذي لا يتمثل الأحداث والفضاء والشخصيات عبر المحاكاة، فقط، بل يحقق الصوغ الأسلوبي الملائم لها.

فالرواية مشبعة بلغة العصر الذي تمثله، فهي تستثمر النص التراثي العربي من خلال آليات تناصية متنوعة منها: التضمين والاقتباس والمحاكاة والاستشهاد والبارروديا والتهجين والأسلبـــة والإحالة وغير ذلك من الإجراءات التناصية التي وظفها الكاتب عن وعي أو تسربت إلى المكتوب نتيجة امتصاصه لتراث العربية الوارف، خصوبة تنمي عنها غزارة المقروء، وتعدد مراجع الخلفية النصية كما تمت الإشارة إلى ذلك. وسأكتفي في هذه العجالة بنوعين اثنين:

**أ ــ المستنسخ الشعري:** نجد في الرواية تضمينا لنصوص شعرية، دون الإشارة لقائلها،وتشكل بورودها في سياقاتها المختلفة، حالات شعرية تنسجم والموقف التي عبر عن المتكلم بتلك اللحون، فهي لسان حاله، ومرآة نفسه، وترجمان ما يعتمل في صدره من لواعـــج وأحزان. لذلك نعتبرها التفاتة ذكية من المؤلف، جنبته الخوض في كثير من الشروح والتفسيرات.كما أن تلك النصوص، دعوة صريحة لتفيُّؤ الظلال الوارفة للمصادر الشعرية والتغني بروائعها الفيحاء.

والنصوص الشعرية كثيرة، تم استقطابها من الأدب المغربي ثم الأندلسي الذي يحـــيل على الطبـــيعة وإنطاق ساكتها،كما تدل بغناها وخصوبتها على خصوبة الأغراض الكبرى التي تنتسب إليها، ومنها غرضا الوصف والغزل الذين اشتهرا في الأندلس والمغرب.

ومن دلالات المستنسخ الشعري الوارد، دلالته على الحزن والهوان وانسداد الأفق أمام سطوة الغالب وقلة الحيلة، وهنا يحضر الاستشهاد بالموروث الشعري لتحقيق تماثل بين حالة وحالة، وللاستدلال على ما يجري، نجد ذلك في المقطع التالي: "فأشارت إلى الخوذة فأحضرت لها قيثارتها، التي أتت بها إليها، مما تبقى من ماعونها الخاص بها في سلا، وتوقف القاضي عن الشرب، وتتبع حركتها مشدوها، فإذا شامة تستوي على أريكة وتقوم بتسوية الأوتار، وتنقر عليها بصوت كان يعجب كثيرا معلمها، الغرناطي في الألحان بدار ابن الحفيد:

قد أكمل الحسن في تركيب صورتهـــا.
فارتج أسفلها واهتز أعـــــــــلاهـــا
قامت تمشي فليت الله صيـــــرنـــي
ذاك التراب الذي مســـــته رجلاهـــــا

فقام القاضي يرقص ويقول: أنا ذاك التراب، أنا ذاك التراب"(1).إنها لحظة النشاط الفيزيلوجي ـــ كما يقول باختين ـــ "لتجسيد الكلمة ماديا"(2). ومن خلالها تحضر صورة اللغة، تحضر في الرواية نصوص أخرى تدل على المقصد نفسه، حيث يحضر المثل"إياك أعني واسمعي يا جـــارة"، وهي عبارة مسكوكة وردت مكتملة المبنى تحضر بمثابة تعبير دال على حضور صوت خفي يوجه له الكلام، تحيل على مكون خطابي للمستنسخ، وهي مكونات تعمل وفق نظام إحـــالي ـــ مرجعي ـــ على القوالب الجاهزة من جهة والأشكال التداولية من جهة ثانية "(3).

ويأتي ذلك في السياق الذي جمع القاضي الجورائي بابن الحفيد وقراره الزواج بشامة: "وفجأة سكت الجورائي من قهقهته، فقد سمع ورقاء من الطير تشدو فوق شجرة صفصاف أمام الرواق المنصوب له، فأشار إلى الجميع بالسكوت وحتى المطربون أسكتوا، فإذا الجميع منصتون للطائر، وإذا الجورائي ينشد:

رب ورقاء هتوف بالضحى
ذات شجو صدحت في فنن
فبكائي ربما أرقهـــــــــا
وبكاها ربما أرقنـــــــــي"(4).

كما يرد الاستشهاد الفني في سياقات أخرى، منها التندر أو بعث روح المرح(5). كما تلعب النصوص الموازية دورا ميتالغـــويا، بالإحالة إلى الأدب نفسه، عبر إعادة النص الأدبي لدوره الفني

والجمالي، من خلال بنية " نصية كبرى، تتعدد فيها النصوص وتتقاطع وتتداخل وتتعارض. وعلاقة النص بهذه البنية النصية الكبرى هي علاقة صراعية، أو لنقل جدلية تقوم على أساس التفاعل الذي يأخذ طابع الهدم والبناء"(6) وهي بنية أدبية تسجل حضور النوادر الأدبية والمساجلات الفنية والمستملحات الثقافية في غياب عناصر فنية ـــ معاصرة لنا ـــ لم تكن حاضرة في ذلك التاريخ.وهذه النصوص الغائبة جاءت وفق خلفية نصية: "يمكن تمثيلها بالنص القابع... ويوظفها في سعيه إلى إنتاج الدلالة.. وهي تبرز لتعزيز ما يرمي إليه الكاتب"(7). كما تعمل على طرح إشكالية الكتابة في الكتابة، وبيان المضمرات الإبداعية وخفاياها، عبر استحضار النص الأدبي التراثي أو المزامن "عبر تذويبه وإماتته تناصـــــيا"(8).

**ب) لغة المراسلات والكتابة الديوانية** : إذا كان كل عصر يفترض وجود "أنواع قراءاته في كيفيات الكتابة السائدة فيه"(9) فالترسل نظام أسلوبي وبلاغي، عُدّ ـــ في زمنه ـــ علامة على الرقي الأدبي، في صناعة القول، وهو يحتفل باللغة في أبهى صورها، وأسمى تراكيبها، المعجمية، والأسلوبية، والبلاغية.

وقد كان وسيلة من وسائل التواصل بين الحكام والمسؤولين والسياسيين والأدباء وسائر أرباب القلم. ولعل ما تركه لسان الدين ابن الخطيب(10)، وهو أحد الكتاب المشهورين، في "الريحانة الديوانية" يشكل خزانا أدبيا لفن الترسل بالمغرب الوسيط.

فقد شهدت جل رسائله الديوانية على التحولات التي عرفها المغرب في العصرين الموحدي والمريني (11). وكذا خط المد والجزر الذي كان بين السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان، فكشفت عن جزء كبير منها، نعتبره من حيث المبدأ أحد وسائل تأمل العصر وفهمه من الناحيتين التاريخية والأدبية.

نختار من النصوص المتفاعل معها، ما ورد في "ريحانة الكتاب"، وهي رسالة جوابية من سلطان غرناطة، مهنئا بنجاة السلطان المريني من حادثة الغرق، واستقراره في الجزائر، وهذه الحادثة المشار إليها في الرسالة ترد في سياق الأحداث الروائية، من خلال تركيز السارد على مراحل المحنة في التاريخ المريني، وهذا نصها:" واختلفت الأخبار فلم يتبين الصحيح من الموضوع، وأوحشت الظنون وساءت، وترامت الأفكار حيث شاءت، لا نستطيع شرح أحوال هذا القطر الذي استظل بظل جناحكم. إلى أن ترادفت الأخبار من جهاتها، واتفق منقولها على اختلاف رواتها، وشافهنا بها من شاهد ذلك التمحيص رأي العين. وتعرفنا ما كان من صنع الله لكم في الشدائد، بمقتضى فضله الجميل العوائد، وأن مقامكم قد شملته العصمة، وحلت على الإسلام بوقايته النعمة"(12).

والكاتب وهو يصوغ نصوصا ترسلية، على شاكلة أخرى قديمة، دارسة، ينحو في اتجاه "صياغة خطاب فوقي على خطاب تحتي"(13)، وهو بذلك ينتج قراءته للتراث السردي السابق عليه، مستحضرا النسيج الأسلوبي بمختلف مراتبه ومستوياته(14). كما ينتج لحظة أخرى من لحظات تلقيه، في الوقت نفسه.

وهي محطات تجعل تعلق النص اللاحق، بالنص السابق، الذي يسير على منواله، محطات تتحقق فيها لأسلوب الرواية "السردي النكهة والطابع التاريخيان المتميزان"(15). ومن ثم تصبح بنية النص من "ذات طبيعة النص"(16).

كما يتحقق من خلالها، الانسجام بين النص الروائي وأسلوبه النظمي بمختلف مستوياته ومراتبه، ومتخيله النصي، الذي يبنيه وتتفاعل معه أحداث النص.وهو عالم تحين فيه الوقائع التاريخية ويبعث فيه "التاريخ الحياة في الأفراد والمجموعات"(17).

وأسوق شاهدين اثنين من الرواية، الشاهد الأول هو عبارة عن رسالة الشريف التي أملاها على كاتب العدل، لما حاول العامل جرمون، الإيقاع بشامة، والنيل من شرفها، دون وجه حق، كما اتخذ من سجن علي سانشو، زوجها، ذريعة لذلك. وقد كتبت الرسالة، في مقام الدفاع ورد الحق إلى نصابه، وهذا نصها: "إلى السيد النحرير حاجب الحضرة العلية، نلتمس منكم إبلاغ العلم السامي أن عامل سلا يتحرش بالمصونة وصيفة المرحومة بكرم الله أرملة والده المعظم السيدة أم الحر، ويتعلق الأمر بأرملة القاضي الأمجد الشهيد الجورائي تغمده الله برحمته، وهي تحمل رسم وصية بالحمل على المبرة من السيدة أم الحر، زكاه سيدنا بكرمه. وعامل سلا الآن سجن زوجها وهو من الإسلاميين المباركين، ويتآمر لتطليقها عليه إشباعا لأطماعه، وبه الإخبار والسلام. "نقيب أهل النسبة الشريفة في سلا وعملها"(18). أما النموذج الثاني فيرد في نفس السياق وهذا نصه: "ثم أملى على كاتب عدله كتابا إلى جرمون وفيه "عامل الحضرة العلية على سلا، بعد الدعاء الواجب لسيدنا، نخبرك أن المرأة المسماة شامة بنت العجال الساكنة بفندق الزيت قد لجأت إلى دار الأشراف واستحرمت بأولادنا فرارا من الذعر الذي هالها بسبب سجنك زوجها وإيداعه لدى القاضي. ولقد قبلنا استحرامها رعيا لما تخوله لنا ظهائر سيدنا ووالده ووالد والده..."(19). إن النص الترسلي، عبر هذين النموذجين يحقق، بالإضافة إلى الوظائف التي أشرت إليها، خاصية التواصل مع الحقبة الزمنية التي يستحضرها، وهي على الجملة تضاهي في رونقها اللغوي وجمالها الأسلوبي والتعبيري، نظائر وأشباها لها مما ورد في كتب الترسل

المغربي.كما تهدف إلى تحقيق الوظائف عينها التي منحت لهذا النمط من الكتابة في العصر الوسيط؛ وهي وظائف تشتغل جنبا إلى جنب مع جل المتغيرات السياسية التي عاشها الحكم المريني.

_____

1-الرواية، ص:37.

2-الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، ط1، 1986، ص: 116.

3-سعيد علوش ، عنف المتخيل ، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، البيضاء، الطبعة الأولى 1986،ص 11

4-الرواية، ص:16.

5-أنظر على سبيل المثال لا الحصر؛الصفحات: 16، 35، 37، 38،..

6-سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1989، ص:32.

7-نفسه، ص:33.

8-سعيد علـــــوش مرجع سابق ص 11

9- Laurent jenny la stratégies de la forme in poétique, n 27 , 1976. p 258

10- أحمد عـــزاوي ، الغرب الإسلامي خلال القرنين 7ـــ8،دراسة وتحليل،ج 1،ط&،الرباط 2006. ومن نماذج الرسائل التي ذكرت في كتاب ابن الخطيب"ريحانة الكتاب" وليس بفضل الله سبحانه..إلا ما شرح الصدور،وأكد السرور،وبسط النفوس، وأضحك الزمن العبوس، من اتساق أمور ذلك الملك لديكم، واجتماع كلمته عليكم...." أنظر أحمد عزاوي الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري (ق14 م) دراسة تاريخية لريحانة الكتاب لابن الخطيب،الرباط نيت الطبعة 1،2008 ص12

11- أحمد عزاوي الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري الرباط نيت الطبعة الأولى 2008 ص3

12- أحمد عزاوي،ص 13، 14.

13- - G. Genette, Palimpseste 1983 Seuil, paris 1983, p 16.

14-الأمين العمراني: مرجع مذكور، ص:249.

15-الأمين العمراني: مرجع مذكور، ص: 249.

16-سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي ـــ النص والساق، مرجع مذكور، ص: 32.

17-عبد الأحد السبتي : التاريخ والذاكرة ص 109.

18-الرواية، ص: 118.

19-الرواية،